قراءة في تفسير ابن كثير

سورة الحشر

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. نكمل في لقائنا اليوم ما تدارسناه في هذه السورة العظيمة الشريفة، التي أخذتنا هناك حيث الأحداث العظيمة التي بينت قدرة الله -تعالى- ومظاهر عزّته -سبحانه وتعالى- والدلائل على أنه الظاهر -سبحانه وتعالى- وتأييده لنبيه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وكان ذلك بإجلاء يهود بني النضير من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وتبع ذلك بيان جملة من أحكام مال الفيء وكيف عاد هذا المال إلى أصحابه الذين ينتفعون به في جعل الدنيا دارًا لطاعة الله وعبادته، وممرًا إلى تقوه وخشيته.

وفيما تدارسناه وانتقلنا إليه وعشناه، سمعنا عن تعظيم قدر أصحاب رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وما كانوا عليه من فضائل، سواء كانوا المهاجرين أو الأنصار وحال من جاء بعدهم من المؤمنين، الصادقين، المحبين لهم. ثم عرفنا جملة من صفات المنافقين، وكشف لنا الله الباطن سوء نياتهم، ظواهرهم تخدع كثير من الناس، والله الباطن يكشف لنا سوء

نياتهم. وعلمنا التشابه بين تغرير المنافقين باليهود بنصرتهم بتغرير الشيطان بالذين كفروا، فكان عاقبة الجميع -والعياذ بالله- الخلود في النار.

هذه الرحلة العظيمة التي نقلتنا لذلك التاريخ المجيد وتلك الأحداث الواضحة الدلالة على قدرة الله وعظمة الله، وأنه الظاهر والباطن، انتهت بوعظ المؤمنين بأمرهم بالتقوى والتذكير بيوم اللقاء، الذي يجب علينا اليوم أن يكون شاغلنا جميعًا ويجب أن نكون متذكرين له، فكل من آمن أوجب له إيمانه أن يتقي الله سرًا وعلانية في جميع أموره مستعدًا للقاء ربه، يحاسب نفسه، يراجعها، ينظر ما لها وما عليها، وماذا حصّل وأي شيء فوّت؛ ليتوب ويجتهد فيما بقي، ونعيد ونكرر، كما أعاد علينا رب العالمين وكرر في كلامه العظيم: أعظم ما يصلح النفس هو أن يبقى الإنسان يفكر في لقاء الله، النفس تصيبها العفونة إذا نست لقاء الله، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)، غفلوا عن آيات الله بسبب أنهم لا يرجون لقاء الله. فالإيمان يعتمد على ركنين أساسيين وتأتي الأركان الباقية من ورائها: أن تؤمن بالله العظيم وترى آثار عظمته وجلاله وكماله وجماله في كل شيء، وأن تؤمن أنك ستلقاه وتستعد

لهذا اللقاء، وتعتني بتزيين نفسك لهذا اللقاء، تبذل قصارى جهدك في إصلاح أعمالك لأجل هذا اللقاء، فنجتهد في كثرة الأعمال الموصلة إلى الله، في تصفية الأعمال من القواطع والعوائق التي توقف الإنسان عن السير أو تعوقه، نجعل الآخرة نصب أعيننا ونسير في الحياة راغبين أن يكون خير أيامنا يوم أن نلقاه سبحانه وتعالى.

وهذا الأمر مناسب جدًا لما نستقبل من الشهر الكريم الذي أكرمنا رب العالمين به، وبما فيه من فضائل، مناسب أن نتذكر أننا أمام فرصة، قُبض من قُبض قبل أن يكون من أهل هذه الفرصة، مات من مات قبل أن يكون من أهل هذه الفرصة، فالواجب أن نحمد الله ونفرح بوجود هذه الفرصة ونراجع مسالكنا ونرى في يومنا وليلتنا كيف يجب أن نعتني بوقتنا، وكيف نعالج أنفسنا من الإدمان على سلوكيات تُذهب بالوقت. وأعظم من ذلك أنها تُذهب بقوى الفؤاد فيصبح الفؤاد مشتتًا، والناس كلهم يشتكون التشتت -إلا من رحم ربي- وأن الأمور متداخلة، وأن البركات منزوعة من أوقاتهم وحياتهم. وعلّة ذلك -والله أعلم- أن الخلق ما جعلوا الهدف والمقصد واحدًا، ولا كانت رؤيتهم بعيدة واضحة لما يريدون. فتداخلت عليهم الأمور وكثرت الأهداف، حتى أصبحت هناك ترتيبات للأولويات باطلة، ففقد الناس ترتيب الأولويات وتشتت

نظرهم للأهداف، وكثرت عليهم مقاصدهم وأخذتهم الدنيا وسرقتهم، وفي نهاية الأمر أصحبوا مدمنين على كثير من الأعمال التي لا قيمة لها، بل نجد أنفسنا نتصفح في هذا الجهاز ونقرر أن نتركه فما نجد قوة مقاومة لذلك! ونعود نفتح نفس الذي أغلقناه بدون هدف! حالة من التشتت يخرجنا منها هذا الأمر الذي أمرنا به رب العالمين في خاتمة سورة الحشر: (اتَّقُوا اللَّهَ) انظروا لما قدمتم لغد، الأجل مبهم الوقت، لقاء الله يمكن أن يكون في أي يوم من الأيام التي سنستقبلها، بل في كل لحظة! فالمفترض أن يكون العاقل مترقبًا للقاء الله لكونه ممكنًا في أي وقت ولكوننا متأكدين أننا لا نعلم متى اللقاء. واللقاء مؤكد سيكون، لكن إبهام اللقاء المفترض أن يجعلنا متأهبين، على الأقل في الأيام الفاضلة التي سنستقبلها وهي أيام معدودات، على الأقل يكون تركيزنا على أن نحصّل أعمالًا صالحات بنيات خالصة لله قدر ما نستطيع.

لذا نلاحظ أن رب العالمين قد ختم هذه الآية التي أمرنا فيها بالتقوى وأمرنا بالنظر لغدنا القريب بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أمرنا في أول الآية وفي آخرها بالتقوى ثم أخبرنا أنه خبير سبحانه وتعالى. اتقوا الله واعتنوا بأوقاتكم، اتقوا الله واستكثروا من الأعمال الصالحة لأن المواسم لا تدوم والفرص لا تتكرر، والله -عزَّ وجلَّ- خبير، عظيم

الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم، محيط بكم، (خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) سواء عملتم أعمالًا بالقلب، أو عملتم أعمالًا بالجوارح، أو غفلتم عنها.

(اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) صدقكم من كذبكم، الله خبير بذلك. هذه الآية العظيمة الكريمة أتى بعدها تحذير يوضح هذه الآية بصورة أعظم، ولنا مع الآية وقفة نسأل الله أن ينفعنا بها ونحن نستقبل هذا الشهر المبارك، قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قال ابن كثير -رحمه الله-:

وَقَالَ (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أَيْ: لَا تَنْسَوْا ذِكْرَ اللَّهِ فَيُنْسِيَكُمُ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أَيِ: الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، كَمَا قَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[1] .

[1]() الْمُنَافِقُونَ: ٩.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ نَجْدَةَ الْحَوْطِيُّ، حَدَّثَنَا [أَبُو] الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنَا حَرِيز بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ نُعَيْم بْنِ نَمحة قَالَ: كَانَ فِي خُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ لِأَجَلٍ مَعْلُومٍ؟ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ الْأَجَلَ وَهُوَ فِي عَمَلِ اللَّهِ -عزَّ وجلَّ- فَلْيَفْعَلْ، وَلَنْ تَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ. إِنَّ قَوْمًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، فَنَهَاكُمُ اللَّهُ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ: (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ؟ قَدِمُوا عَلَى مَا قَدِمُوا فِي أَيَّامِ سَلَفِهِمْ، وَخَلَوْا بِالشِّقْوَةِ وَالسَّعَادَةِ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ بَنَوُا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ؟ قَدْ صَارُوا تَحْتَ الصَّخْرِ وَالْآبَارِ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ فَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ ظُلْمَةٍ، وَاستضِيئوا بِسَنَائِهِ وَبَيَانِهِ إِنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[2] ، لَا خَيْرَ فِي قَوْلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ فِي مَالٍ لَا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَغْلِبُ جَهْلُهُ حِلْمَهُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

---

[2]() الْأَنْبِيَاءِ:٩٠.

هَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَرِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ، وَشَيْخُ حَرِيز بْنِ عُثْمَانَ، وَهُوَ نُعَيْمُ بْنُ نَمْحَةَ، لَا أَعْرِفُهُ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ، غَيْرَ أَنَّ أَبَا دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيَّ قَدْ حَكَمَ بِأَنَّ شُيُوخَ حَرِيز كُلَّهُمْ ثِقَاتٌ. وَقَدْ رُوِيَ لِهَذِهِ الْخُطْبَةِ شَوَاهِدُ مِنْ وُجُوهٍ أُخَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هذا الكلام من ابن كثير -رحمه الله- كلام موفق في بيان هذه الآية العظيمة، ونقل أجاد فيه من أجل بيان والتذكير بمعنى (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) ولننظر إلى التتابع الحاصل في الآية:

الآية السابقة أمر بالتقوى مرتين، وأمر بالاستعداد للقاء الله الذي هو العامل الحاث على طاعة الله، وكلما تذكر الإنسان لقاء الله كلما اغتنم لحظاته ودقائقه وثوانيه، وأخبر -عزَّ وجلَّ- أنه خبير بما تعملون، خبير بهذه النفوس ورغباتها وآمالها وميولها، فأتت الآية الثامنة عشر فيها حثّ على تقوى الله وعلى الاجتهاد في تقديم العمل الصالح ليوم غد.

بعد هذا الحث جاء التحذير من النسيان والترك، حذرنا رب العالمين من أن نكون مثل الذين (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)، وهذه حال خطيرة. بيّن ابن كثير أن معنى: (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) "لَا تَنْسَوْا ذِكْرَ اللَّهِ فتكون النتيجة فَيُنْسِيَكُمُ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، وهذا كما ذكر

ابن كثير على القاعدة المعلومة فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ" فإذا حصل منكم نسيان الله كان الجزاء أن ينسيكم الله مصالح أنفسكم؛ لأن ذكر الله هو الوسيلة العظيمة التي يصل بها الإنسان إلى مصالحه. وكلما زاد ذكر الله، زاد اهتداء الإنسان لمصالحه، بل عبادات الإنسان نفسها تزداد بركة إذا زاد فيها حضور قلبك بذكر الله، ويقل أثر هذه العبادات إذا غاب ذكر الله.

وبمناسبة الكلام عن الذكر، فقد ورد في الحديث عن الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنَّ رجلًا سأله فقال: "أيُّ الجهادِ أعظَمُ أجْرًا؟" قال: «أكثرُهم للهِ تبارَك وتعالى ذِكْرًا» قال: "فأيُّ الصَّالحين أعظَمُ أجْرًا" قال: «أكثرُهم للهِ تبارَك وتعالى ذِكْرًا» ثمَّ ذكَر الصَّلاةَ والزَّكاةَ والحَجَّ والصَّدقةَ كُلَّ ذلك ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: «أكثرُهم للهِ تبارَك وتعالى ذِكْرًا»[3].

فلنتصور هذا المعنى ونحن نقدم على رمضان ونرى أن الإنسان قد يقع في شيء من نسيان ذكر الله، فيقابل هذا أن ينسى مصالح نفسه، لأن مصالح الإنسان لا يهتدي إليها إلا بذكر الله، وسؤال الله، ورجاء الله، والتوكل على الله، والثقة بالله، والاعتماد على الله، فنسيان الله يعني نسيان لحقيقة

---

[3]() أخرجه أحمد (3/ 438).

تحصيل مصالحك. والناس في مثل هذه المواقف تجدهم لا ينسون الله إذا أرادوا شهوة أو حظ، فيسألونه: "يا رب أعطنا" لكن ينسون أن يذكروه عابدين خاشعين راجين أن يوفقهم إلى مراضيه، وأن يعملوا الأعمال التي تكون سببًا لنجاتهم، فحتى حين يتذكرون رب العالمين يتذكرونه لشهواتهم!

ما أثر أن يبقى الإنسان ذاكرًا لله؟ ما أثر أن يبقى متذكرًا كمال الله وعظمة الله؟ قال ابن كثير: "لَا تَنْسَوْا ذِكْرَ اللَّهِ فَيُنْسِيَكُمُ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ" المقصد أن هذه المصالح تنفعكم في المعاد. حين يريد الإنسان أن يضع مقياسًا لنسيانه نفسه، متى يكون ناسيًا لنفسه؟ إذا نسي أن يعمل لصالح معاده. فالناس يتذكرون شهواتهم، بل ويسألون الله شهواتهم! فلا تجدهم ينسون أنفسهم من جهة الشهوة، لكن ينسون أنفسهم من جهة ما يعود عليهم في آخرتهم بالخير، وهنا نؤكد على ذلك "لَا تَنْسَوْا ذِكْرَ اللَّهِ فَيُنْسِيَكُمُ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ" الطاعات والعبادات، هذه من المؤكد أنها من مصالح أنفسنا التي تكون في معادنا، لكن هناك أمر دقيق جدًا يحتاج إلى تفكير من مصالح أنفسنا التي تنفعنا في معادنا، وهو معرفة النفس، والتفتيش في عيوبها ومعرفة طرق تزكيتها، فإن الإنسان إذا ما عرف الله، وما عرف نفسه تشتت وضاع،

وانفرط عليه أمره. فالعلم بالله أصل كل علم، ووصول الإنسان إلى تزكية نفسه مبدأه معرفة الله، ومعرفة ما تزكو به نفسه وما تفلح به نفسه، فالإنسان إذا ما عرف الله ما عرف نفسه، والإنسان إذا ما فتش قلبه، ما زكى نفسه. وهذا من أخطر صور نسيان النفس، ومن أجل أن نتصور هذا الأمر، تصور كيف يستطيع الإنسان أن يعرف عيوب غيره وينتقدها ويقلبها وينظر فيها ويحلل تصرفات الآخرين ويقيمها، ولا يلتفت إلى أفعاله ولا ينتقد تصرفاته، ولا يعود على نفسه باللوم ولا يتوب، ولا يستغفر، ولا يطلب السماح من إخوانه الذين وقع في أعراضهم، أو وقع في انتقادهم، أو تعدى عليهم، ما ينظر إلى هذه الشؤون كلها، أبدًا.

فهل بعد هذا هناك نسيان للنفس؟! ترى عيوب الغير ولا ترى عيب نفسك وكأنك ستحاسب عن الغير، أو أنك مسؤول عن محاسبة الغير! لا أنت مسؤول عن محاسبة الغير ولا أنت ستحاسب عنهم، ومن ثمَّ ما الذي يدعوك للانشغال بهم؟ الذي يدعوك للانشغال بهم أن الشيطان يمكر بك وينسيك ذكر الله الذي يسبب لك أن تحاسب نفسك؛ لأنك ستستعد لغد. ينسيك ذكر الله فلا تستعد لغد، والشيطان يجعلك مشغولًا بذكر عيوب الغير عن عيبك، فترى نفسك يمكن أن تقول: "هذا يسرع في صلاته، هذا يهتز في وقوفه، هذا يسرع في

سجوده" وكأنك تصلي مثلما صلى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-! ولو كنت تصلي مثلما يصلي الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ولو كنت ضامنًا القبول، أنت ممنوع من الانشغال بغيرك إلا أن تنصحهم وتأمرهم بمعروف وتنهاهم عن منكر، وأنت في هذا كله مشفق عليهم وراغب أن تكون هدايتهم سببًا لتثقيل ميزانك، وليس الكلام معهم لإخراج ما في نفسك من انتقاد لهم واحتقار لهم، ورفعة نفسك عليهم! لا تنس نفسك، لاحظ هل أنت مراقب لأفعالك، محاسب لنفسك مستغفر لربك، داعٍ للخلق رحمة بهم، أو أنك ناسٍ لنفسك؟! وهذه حال لا يخرج منها الإنسان إلا برحمة الله، نسأل الله أن يرحمنا من أن ننسى أنفسنا. والوسيلة من أجل أن لا ننسى أنفسنا هي: أن نبقى ذاكرين لربنا مستعدين للقائه، والاستعداد للقائه أصله التفكير في اللقاء وطلب أن يكون هذا اللقاء أحسن ما يكون، الرغبة في أن يكون خير أيامنا يوم أن نلقاه، هذا كله يسبب أن لا ينسى الإنسان نفسه. رب العالمين، بفضله ومنّته، جعل في كتابه الكريم الحل لهذه المشكلة الكبيرة؛ مشكلة أن ينسى الناس أنفسهم، ينسى الإنسان حق الله فيعاقب بأن ينسى حق نفسه عليه، فلا يسعى فيما ينفعها.

الحل أن نكثر من ذكر الله ونفكر في غدنا الذي فيه سنلقاه، فيكون الأثر -من فضل الله- أن نتذكر مصالح أنفسنا فننكب عليها إصلاحًا، ونكثر من التوبة والاستغفار.

فالحمد لله الذي دلنا على الخروج من هذه الأزمات، والحمد لله الذي وهبنا عقولًا تستوعب هذه الخطابات، ومن هذا أن نعرف أن الذين نسوا الله فعوقبوا بأن ينسوا أنفسهم ومصالحها فلا تجدهم طائعين، ولا تجدهم في الأيام الفاضلة مستثمرين لأوقاتهم، ولا تجدهم مزكين لأنفسهم، اعلم أنهم هم لا غيرهم (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)، هذه الجملة تركز الفسق فيهم؛ لأن (أُولَئِكَ) اسم الإشارة وكأنهم هناك في أعماق الفسق، و(هُمُ) الضمير المنفصل الدال على الاختصاص، وألف لام لاستغراق هذا المعنى.

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وصفهم بشدة الفسق حتى كأن فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم، واستعمال اسم الإشارة حتى يشهّر بهم.

ما معنى الفسق؟ قال: "الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ" فالفسق في أصله يعني الخروج من المكان الموضوع للشيء، وهي تستعمل عادة كصفة ذمّ، كأن هناك مكانًا لائقًا لك وأنت خرجت منه.

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) من أجل أن تتصور أن هؤلاء الذين (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)، أنهم بالغو منتهى الفسق في الأعمال السيئة، حتى أن رب العالمين بيّن لنا أنه لا فسق بعد فسقهم! فهذا دليل على خطورة حالهم، هؤلاء خرجوا عن الدين القيّم الذي هو (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)[4]، خرجوا عنه واشتغلوا بالدنيا وتركوا مصالحهم التي في الحقيقة مصالحهم، واصطنعوا مصالح شغلتهم عن مصالحهم الحقيقية وكان جزاء ذلك أنهم خائبون في الدنيا والآخرة.

ابن كثير أشار إلى هذا المعنى باستشهاده بآية سورة المنافقون، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وكوننا نعرف أن هذه الآية في سورة المنافقون، أكيد أن هذا سيبين لنا أن رب العالمين في سورة المنافقين حذر أهل الإيمان من السبب الرئيس للدخول في باب النفاق، وهو نفس المعنى هنا، بعد أن ذكر رب العالمين في سورة الحشر أهل النفاق وكونهم خذلوا اليهود، وكون أن هذه حالتهم الدائمة؛ أنهم مثل الشيطان يعد ويخلف ويتبرأ، فأهل النفاق هؤلاء ما اتقوا الله ولا نظروا غدًا ماذا سيكون الشأن، ونسوا ذكر الله، فتراهم ربما يركعون ويسجدون ولا يدرون ماذا يقولون! يمكن أن

---

[4]() الروم: 30.

يظهر عليهم مظاهر العبادة؛ لذلك النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أشار إلى صلاة المنافق، قال: «تِلْكَ صلاةُ المنافقِ تِلْكَ صلاةُ المنافقِ؛ يرقبُ الشَّمسَ حتى إذا كانت بينَ قرني شيطانٍ قامَ فنقرَ أربعًا لا يذْكرُ اللَّهَ فيها إلَّا قليلًا»[5] الكلام على صلاة العصر، فهو يصلي ويشارك المسلمين في الصيام وفي كل الطاعات والعبادات، لكنها كلها خالية من الروح ما فيها ذكر لله، يجب أن نركز في هذا؛ أن هؤلاء الذين نسوا ذكر الله ربما صلوا وصاموا، لكن الصلاة والصيام لا روح فيها. وقد سمعنا حديث النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن أكثر الصائمين أجرًا وأكثر القائمين أجرًا وأكثر المجاهدين أجرًا، أكثرهم ذكرًا لرب العالمين، والمنافقين عكس هذا؛ نسوا ذكر الله فأنساهم أنفسهم.

لنركز في النتيجة ابن كثير -رحمه الله- أورد آية سورة المنافقون التي فيها خطاب لأهل الإيمان: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، لأن هذه الآية تحذر أهل الإيمان من الأعمال التي قد تنقلهم إلى النفاق، وإذا نقلوا إلى النفاق كانت صفتهم: أنهم نسوا الله.

ما هي الأعمال التي يمكن أن تنقل الإنسان إلى النفاق -والعياذ بالله- وتسلب منه الإيمان رويدًا رويدًا، وتنسيه ذكر

---

[5]() أخرجه مسلم (622).

الله فينسيه الله مصالح نفسه؟ الالتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر الله؛ بيّن -عزَّ وجلَّ- أن هذا الداء يذهب بالإيمان، (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ). ماذا نفعل بالمال؟ ماذا نفعل بالأبناء؟ نجعلهم وسيلة للقرب إلى الله، ما نجعلهم عائقًا ومانعًا، ما نجعلهم شاغلًا، لذلك قال تعالى: (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ)، أنتم مؤمنون فلا يشغلكم اغتباطكم بأموالكم وأولادكم عن ذكر الله والقيام بأمر الله والانتهاء عما نهى الله. كونوا ذاكرين لله، حريصين على أن تستعملوا ما أعطاكم الله قربى إلى الله.

ومن هنا نقل الكلام التالي، نقل خطبة خطبها أبو بكر -رضي الله عنه- قال فيها: "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ لِأَجَلٍ مَعْلُومٍ؟ فكروا، انظروا، فلتكن لكم رؤية واضحة أنتم إلى أي جهة تذهبون؟ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ الْأَجَلَ وَهُوَ فِي عَمَلِ اللَّهِ -عزَّ وجلَّ- فَلْيَفْعَلْ" اشغلوا أوقاتكم كلها بعمل يقربكم إلى رب العالمين. ثم بيّن أبو بكر -رضي الله عنه- ناصحًا للأمة أن هذا الهدف الذي وضعته نصب عينيك وهو أن تكون عاملًا في كل وقتك لله، خالصًا فؤادك لله، راغبًا فيما عند الله، حتى وأنت تربي أبنائك وتستعمل مالك، وتقوم بأعمالك، اجعل ذلك كله قربى إلى الله.

نصحهم هذه النصيحة في الدلالة على الوسيلة، هل تريد هذا الهدف؛ أن تكون حياتك كلها لله؟ الوسيلة لن تنالوا ذلك إلا بالله، استعينوا بالله، اطلبوا الله، سلوا الله أن يبارك في أوقاتكم، أن يجعل أعمالكم خالصة له، أن توفقوا إلى أبواب الخير في كل عمل تعملونه، أن تكون أعمال دنياكم وسيلة إلى أخراكم. سلوا الله، استعينوا بالله. والصادق يوصله الله، لا نقول هذا بطرف ألسنتا ونحن متمسكين بدنيانا، إنما نكون صادقين شاغلنا لقاء الله عن كل الأشياء؛ لأننا سنلقى الله، ونود أن يكون خير أيامنا يوم أن نلقاه. فماذا نفعل؟ نبذل جهودنا أن نبقى ذاكرين لله في دنيانا، ونبقى عاملين له ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، ولن ننال ذلك -كما نصحنا أبو بكر رضي الله عنه- إلا بالله فنطلب من الله، قال: "إِنَّ قَوْمًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، فَنَهَاكُمُ اللَّهُ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ" بيّن مَن هؤلاء الذين جعلوا آجالهم لغيرهم؟ هؤلاء الذين (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ). كيف جعلوا آجالهم لغيرهم؟ كما مر معنا في الكلام، يفكرون في هذا وينتقدون هذا ويبذلون جهودهم في تقييم الناس حولهم وينسون أنفسهم، يخدمون في فلك من المادية لا يعرفون من المستفيد منه! فأبو بكر -رضي الله عنه- ينبهنا لهذا "إِنَّ قَوْمًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ" طحنوا لغيرهم وبقوا في الحياة في فلكها يخدمون غيرهم ويفعلون لغيرهم ونسوا

أنفسهم وتزكيتها والعمل الصالح ولقاء ربهم. يقول -رضي الله عنه-: "أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ؟ أين الناس الذين من حولكم، أندادكم، كم عزينا أناس اقترب رمضان ولم يكن هذا الرمضان مكتوبًا في آجالهم. أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ؟ قَدِمُوا عَلَى مَا قَدِمُوا فِي أَيَّامِ سَلَفِهِمْ، وَخَلَوْا بِالشِّقْوَةِ وَالسَّعَادَةِ، والله أعلم مصير كل أحد منهم نسأل الله أن يرحمهم ويرحمنا جميعًا، ثم يذكرهم أبعد من ذلك، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ بَنَوُا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ؟" فكروا في القوم الذين سكنوا الحِجْر من أجل أنهم يتصورون -وهؤلاء هم قوم صالح قبيلة ثمود- أن سكناهم الحِجْر ستمنع هلاكهم؛ لأنهم فكروا أن الذين كانوا من قبلهم هلكوا بالريح، فأتوا بالحِجْر لأجل أن يحميهم من أمر الله، سبحان الله! كم ينسى الإنسان مصالحه، كأنه بهذه الطريقة سيمنع أن يقع عليه أمر الله، لو ذكروا الله وأطاعوا الله؛ لحفظهم وهم في وسط الأخطار. يقول: "قَدْ صَارُوا تَحْتَ الصَّخْرِ وَالْآبَارِ" وهذا حق ذهبوا وانتهوا.

يقول أبو بكر -رضي الله عنه-: "هَذَا كِتَابُ اللَّهِ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ فَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ ظُلْمَةٍ" وهذه نصيحة مناسبة جدًا لما نحن مقدمين عليه من هذا الشهر المبارك، فلنجعله شهر تقوى ولنجعله استعدادًا للقاء الله، ولنجعل كتاب الله سببًا لذكر

الله، ولتزكية أنفسنا، ولنبقى ذاكرين مصالحنا، ما نكون مثلما قال أبو بكر -رضي الله عنه-: "إِنَّ قَوْمًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، فَنَهَاكُمُ اللَّهُ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ". ويقول أبو بكر -رضي الله عنه-: "هَذَا كِتَابُ اللَّهِ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ فَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ ظُلْمَةٍ" بمعنى تعلموا وافهموا وزكوا أنفسكم وسيكون نافعكم يوم القيامة. وكما أخبر أن لكتاب الله سنا وبيان، فلتشعر به النفوس ولتذق هذا البيان، ثم قال: "إِنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)" لا يوجد تأجيل، شهر مبارك، أوقاته مباركة، نستعد له قبل أن يأتي، ولا يفصلنا عنه إلا أيامًا قلائل، نبتدئ من ليلته الأولى نشرع في الصلاة والدعاء والرجاء ونطلب من الله أن تكون كل ليلة سببًا في زيادة إيماننا، نتلو كتاب الله ونتفهمه، نرجو وندعو الله أن يبارك في كل الأوقات، وأن يدلنا على مراضيه، نهجر كل العادات المشتتة لأذهاننا.

كل هذا رب العالمين يحبه من العباد؛ يحب من العباد أن يقدر الناس نعمته، يقدروا نعمة مد العمر، ويقدروا نعمة موسم الخير، ويقدروا نعمة فتح أبواب الجنان وإغلاق أبواب النار، وتصفيد مردة الشياطين، يحب منا أن نقدر هذه النعمة، وتقديرها باستغلال أوقاتنا والانتفاع من كل أوضاعنا في

زيادة القرب منه، بمعنى أننا نستفيد من كل فرصة، وكل منا في شأنه من عمل في المنزل أو عمل في خارج المنزل، كل منا في حال، يطلب من الله أن يجعل هذا الحال سببًا لزيادة إيمانه والعمل الصالح.

ثم يبيّن -رضي الله عنه- ميزانًا دقيقًا نزن به أعمالنا، يقول: "لَا خَيْرَ فِي قَوْلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، راجع قلبك، راجع مصدر أقوالك، وَلَا خَيْرَ فِي مَالٍ لَا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مال محبوس لا ينفق في سبيل الله تُنزع منه الخيرية، قول لا يراد به وجه الله تُنزع منه الخيرية، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَغْلِبُ جَهْلُهُ حِلْمَهُ، يكون إنسانًا غضوبًا فيأتي إلى مواسم مثل مواسم الطاعة العظيمة فتجده يفسد يومه وليلته بغضبه، لا يغضب لله إنما يغضب للدنيا، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ." نصائح عظيمة جزى الله ابن كثير خير الجزاء على نقلها، ورضي الله عن أبي بكر ورفع مقامه عنده.

هذا الذي سمعناه من الكلام عن هذه الآية (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) جزء من معنى عظيم، علينا أن نحرص على مراجعة كلام المفسرين لهذه الآية ليزداد بيانها، لكن فلنتذكر دائمًا أن رب العالمين خلق لنا هذه الأنفس من أجل تزكيتها وتطهيرها ومن أجل جمع مصالحها وتكثيرها، فلنعرف ربنا، ولنعرف مصالح أنفسنا من خلال كتاب ربنا،

ولنستفد من مواسم الطاعات في تحصيل المصالح لهذه النفس، ومصالحها هي التي تنفعها في الغد حين نلقى رب العالمين.

غدًا، تأتينا الإشارة إلى النتائج التي ستكون من القوم الذين سيعتنون بأنفسهم؛ سيذكرون ربهم ويذكرون مصالح أنفسهم، والقوم الذين ينسون ربهم وينسون مصالح أنفسهم، كيف أنهم لا يستوون أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

نسأل الله بمنّه وكرمه أن نوفق في هذا الموسم العظيم -الذي نقدم عليه- لذكره وشكره وحسن عبادته، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.